رابعًا: المُعْجِـــزَات

خلق الله الخلق وأمرهم بعبادته ورزقهم عقولاً يميزون بها بين الخير والشر وبين الضار والنافع وبين الصواب والخطأ ، وأرسل إليهم رسلاً تهدي تلك العقول إلى خط سيرها الذي رسمه الله لها وترسم لها حدودها التي تضل إن جاوزتها وتنجوا إن اتبعتها وتسلم وتهتدي إلى الحق وتغنم .

وأعطى الله أولئك الرسل من العلامات ما تثبت به للعقول صدق رسالتهم فتذعن بعد ذلك لأوامرهم وتسير على نهجهم وتقتفي آثارهم وتميز بها بين الرسل وأدعياء الرسالة .

من تلكم العلامات ما يسمى بالمعجزات ، والمعجزات جمع معجزة وهي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة يجريه الله تعالى على يد مدعي النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه .

والمعجزات ولا شك حجة للرسل لا ينكر حجيتها إلا مغالط خاضع للهوى أو الجهل . ولو لم تكن المعجزات حجة توجب الإيمان بالرسل لما عاتب الله المشركين وعنفهم ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآيات حيث قال سبحانه ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِم إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾[2] وقال

---

(١) سورة الأنعام : الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٢٥ .

عز وجل ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِم لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2] .

أرأيتم كيف عاتب الله أولئك القوم وذمهم بعدم الإيمان بعد الآيات ؟ أليس في هذا إثبات لحجة المعجزة وكون من لا يؤمن بعدها يستحق هذا الذم ؟

ثم تعالوا إلى نوع آخر من الأدلة على إثبات حجية المعجزات . ألم يقل الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلونَ﴾[3] أليس في هذا دلالة على أن الله سبحانه وتعالى لا يرسل الآيات تفضلاً منه ورحمة بالناس اذ لو أرسلها إليهم لكذبوا بها كما كذب بها الأولون فاستحقوا العقاب كما استحقه أولئك الأولون ، فلو لم تكن الآيات حجة قوية لا يقبل بعدها تردد في الإيمان لما تلاها العقاب لمن كذب بها .

ثم تعالوا إلى نوع ثالث من الأدلة هو في حد ذاته دليل كاف على حجية المعجزة ووجوب الإيمان بعدها واستحقاق المكذبين بعد حصولها للعقاب الشديد قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ إِنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

---

(١) سورة القمر : الآية : ٢

(٢) سورة الأنعام : الآية ٧ .

(٣) سورة الإسراء : من الآية : ٥٩

الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يكفر بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِين ﴾[1] .

أرأيتم إلى أي مدى بلغت حجية المعجزة أي حجة من الحجج يتلوها العقاب الشديد لمن لا يؤمن بعدها ؟ إنها ولا شك لحجة من أقوى الحجج وبرهان من أقوى البراهين . ولهذا وصفها موسى عليه السلام بأنها شيء مبين حين أراد أن يظهر معجزاته عند فرعون وقومه حيث يقول ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2]. لا شك أن تلك المعجزات وغيرها من معجزات الأنبياء « شيء مبين » وموضح ومظهر للحق إظهاراً لا يقبل بعده جدل أو شك .

أبى هذا الحكم رجال المدرسة العقلية الحديثة مستندين إلى أساس ثابت في منهجهم ألا وهو زعمهم تحكيم العقل والعقل عند محكميه لا يؤمن بما يقهره بل لا بد لإيمانه من اقتناع ذاتي بعيداً عن المؤثرات الخارجية المجبرة له على الإذعان كالمعجزات ثم إن هذه المعجزات قد تلتبس بأعمال السحرة والمشعوذين فتوقع الحيرة في التمييز بين الأنبياء وأدعياء النبوة . وهم لا ينكرون وقوع المعجزات وحصولها وإنما ينكرون حجيتها ودلالتها على الرسالة .

لهذا ولغيره من الأمور وقع رجال المدرسة العقلية الحديثة في حيرة وتبلبل فكر أيقولون بالمعجزات فيخالفون العقل الذي به يؤمنون أو ينفونها فيخالفون الدين الذي إليه ينتمون؟ ! فآثروا التكذيب لبعض المعجزات وإبطالها إما بتضعيف إسنادها وإن كان قوياً عند السلف أو بتأويلها بما لا

---

(١) سورة المائدة : الآيات ١١٢ ـ ١١٥ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٣٠ ـ ٣٣ .

تكون به معجزة ووقفوا فيما بقي بين هذا وذاك حائرين .

فآثروا تجريد نبوة محمد ﷺ منها إلا إعجاز القرآن الكريم لأنه معجزة عقلية ثابتة وحجة دائمة لا تنقطع . آثروا هذا لزعمهم أن الدين الإسلامي ـ وحده هو دين العقل وما عداه من الأديان السماوية الأخرى وغير السماوية فإنها لا تلتزم بأحكام العقل إذن فلا مانع من ورود المعجزات فيها فلنثبت لها ما نص عليه القرآن الكريم منها ولنقتنع أن ورود تلك المعجزات مما يناسب عقول أقوام هؤلاء الأنبياء آنذاك .

أما بعد مجيء محمد ﷺ فإن العقل البشري قد نضج واكتمل وتم رقيه وتطوره فلم يعد يقبل المعجزات ولم يعد يذعن لها فلا غرو أن لا يرد في الدين الإسلامي على يد محمد ﷺ منها شيء يقول الأستاذ محمد فريد وجدي « قضت مراحم الله جل شأنه أن يكون الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم ينطق بلسان الصمت للمتبصر ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ويحبب إليه الإنتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ولا يؤوب من استبصاره بندامة . بدون هذا الإعتبار بالعقل لا يتأتى للنفس أن تصحح عقيدتها ولا يتسنى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هذا ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتا ما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم وتندهش لها ألبابهم فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الإنساني رشده فلا تجدي فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية . فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولاً ثم إذا ظهر لهم برآءته منه أخذوا يعللون معجزاته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن طائفة الإسبيريت الروحيين في أوروبا تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ما لو رآه

الجهلاء لظنوا أنه من أكبر المعجزات ، مع أن القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة ، نعم لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء ، ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وإن كان تهوراً منهم إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدي فيه للإعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي »[1]؟ !

وليست المعجزات ـ عند رجال المدرسة العقلية ـ لإقامة الحجة على نبوة أو رسالة لأنها لا تصلح لذلك فلهذا لم يأت بها دين الإسلام لإقامة الحجة على ثبوت نبوة محمد ﷺ بل عدّ السيد رشيد رضا مجرد رواية القرآن الكريم لمعجزات الأنبياء السابقين سبباً لأعراض « العلماء والعقلاء » عن الدين الإسلامي والدخول فيه ؟!! ولولا رواية القرآن لذلك لكان إقبال « أحرار الافرنج » عليه أكثر واهتداؤهم به أعم وأوسع حيث يقول « بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها وفيما يدعون من تجرد محمد ﷺ من لباسها وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له وصادّة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيدّ بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر ، واهتداؤهم به أعم وأسرع لأن أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية وتزكية أنفس الأفراد وترقية مصالح الإجتماع وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى فهي القرآن ، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام فإنما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان .

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

---

(١) المدنية والإسلام : محمد فريد وجدي ص ٧١ ـ ٧٢ .

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود المسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر »[1].

إذن فالمعجزات عنده :

١ ـ مثار شبهات
٢ ـ مثار تأويلات
أ) في روايتها .
ب) في صحتها .
جـ) في دلالتها .

ثم إن ما هو أشد من هذا كله أنها تقع من أناس كثيرين في كل زمان ولا تزال تقع من صوفية الهنود وصوفية المسلمين ؟ ! فما الذي يبقى بعد هذا من حجة وبرهان للمعجزة أنها لا تعدو أمراً عادياً يكثر وقوعه بين الناس لا تقوم به حجة لرسالة ولا برهان لنبوة هذا ما يزعمه السيد رشيد ثم إن هذه المعجزات عنده مخالفة للعقل والعلم والفطرة البشرية .

وهو كلام يكثر ترديده وتكراره بين رجال المدرسة العقلية . وهذا شيخهم محمد عبده يقول « هذا النوع من العلم ـ علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات ـ كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ١٥٥ والوحي المحمدي له : ص ٦٢ .

وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض ، وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته فكان جل ما في علوم الكلام تأويل وتفسير ، وادهاش بالمعجزات أو الهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه فلم يقصر الإستدلال على نبوة النبي ﷺ بما عهد الإستدلال به على النبوات السابقة بل جعل الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة منه . . »[1] .

إذن فالشيخ عبده يرى أن الأديان السابقة لم تكن أدلتها تقوم على حجج عقلية بل تقوم على العداء للعقل نتائجه ومقدماته ، وتقوم على الإدهاش بالمعجزات والإلهاء بالخيالات ، ومن الغريب أنه مع إنكاره هنا لقبول العقل بالمعجزات إلا أنا نراه في موضع آخر لا يعدها من المستحيلات العقلية بل ويقر حجيتها وثبوت النبوة بها حيث يقول « المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلاً فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم الدليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف » « المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلغ عن الله فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى ، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فإن تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فمتى

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ٥ ـ ٦ .

ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة »[1].

ذلكم الرجل الذي يقول هذا القول هو الذي وصف القائمين على الأديان قبل الإسلام بأنهم لا ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي بل ينحون إلى ما يدهش العقل من المعجزات .

وهو الذي قرر أن الدين لهذا كثيراً ما صرح على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته وهو الذي يقول : ـ « وكيف يكون مجرد الخارق موجباً للقطع عند الإقتران بالدعوى ؟ وقد بلغك خبر ابن مقنع وأمثاله ، ممن قد رقمت أحوالهم في صحائف الرجال ، كابن خلكان وغيره ففي الداوستان أن ابن مقنع هذا قد ادعى النبوة وأقام على ذلك معجزة باهرة وهي أنه صنع قمراً ، يرتفع عن الأرض نحو فرسخ ويضيء إلى أربعة فراسخ ، ويستمر كذلك إلى الصباح ثم عند الصباح يغيب ثم يطلع في الليل ، وهكذا ، وهذا الرجل كان بعد الإسلام فإن كان الشيخ الكلنبوي يذعن للخوارق المقترنة بالدعوى ، فلم لم يؤمن بهذا الرجل ؟ ولكن العذر له فإنه كان من القسم الثاني يعتقد بغير روية ولا نظر » « وليت شعري !! إذا كان مجرد الخارق كافياً فلم كان النبي يحث على الفكر والنظر ؟ وجاء القرآن محشواً بالأدلة والبراهين الدالة على وجود الحق تعالى ووحدانيته وقدرته وإرادته وعلمه ، إلى غير ذلك من الصفات المقدسة ؟ »[2].

ويرى الشيخ عبد العزيز جاويش نفس الرأي فينكر أن تكون المعجزات الخارقة كافية مقنعة وهو حينما يقول بهذا القول لا ينسبه لنفسه

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ٨٥ ـ ٨٦ .

(٢) محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : تحقيق سليمان دنيا جـ ٢ ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

بل ينسبه إلى القرآن الكريم وهي قضية خطيرة نلحظها بين بعض الباحثين حينما يفهم أمراً من القرآن الكريم لا ينسبه إلى نفسه بل إلى القرآن وإن كان مخطئاً في فهمه وإن كان متجاوزاً للحقيقة وكان الواجب أن يقول الباحث أرى أن منهج القرآن كذا أوفهمت أو أفهم من الآية كذا .

يقول الشيخ جاويش بعد أن ينسب قوله وزعمه إلى القرآن الكريم « رأي القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الأولون بعد إذ ألحوا في طلبها وأجيبوا إليها . . فرأتها أبصارهم رأي العين ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من إثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع إلى نفوسهم الشك فيها بعد الإصرار على طلبها واللجاج في استنزالها فمنهم من يراها من أنواع السحر ، ومنهم من يكذب بها بغياً وعدواناً » « كما يقص علينا ـ أي القرآن ـ أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها ولكن علم الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ، واستنكرتها أنفسهم بغياً وعلواً ولهذا يبين لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته ولا يقوى معاند على معارضتها تلك هي القرآن الكريم نفسه ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] »[2] .

ثم تعال معي بعد هذا إلى أسلوب خفي في إنكار حجة المعجزات يحتاج إلى مناقيش لاستنتاجه ، يرد هذا الأسلوب في كلام السيد رشيد رضا ينخدع بظاهره السطحيون يقول السيد رشيد « لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بجحودها عذاب الله

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٥١ .

(٢) الإسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

في الدنيا والآخرة ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان بها »[1].

ويقول « إن الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية »[2].

كان الأصح أن يقول في الأول « ولم يؤمن بها ممن شاهدها إلا من هدى الله » أو يقول في الثانية « حجة لهم على أقوامهم يهدي بها من يشاء » ، أما وصف من هداه الله بها بالإستعداد للهداية فهو أمر يدل على أن قائله يصف أولئك القوم الذين هداهم الله بعد المعجزة بالإستعداد للإيمان قبلها فليس لها أثر في ذلك وإنا لنسأله ما الذي يجعله ينكر أن يكون الله قد جعل المعجزة سبباً لوجود الإستعداد للإيمان ثم الإيمان ؟ لا شك أنه إنما يريد بهذا التقليل من شأن المعجزة في التأثير على الاتجاه العقلي للبشر إلى الأديان إذ ليس للمعجزة من تأثير وإنما التأثير يرجع إلى الأدلة العقلية .

ولا يخدعنك وصفه للمعجزات بأنها حجة على الجاحدين أو أنها حجة للأنبياء على أقوامهم فإنه يقول في موضع آخر « وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته »[3] ثم كيف تكون حجة إذا لم يكن لها تأثير في الإيمان إلا إيمان المستعدين له قبل ورودها ؟ إنها لحجة ضعيفة وعهدنا أن المعجزات عند السلف حجة كبيرة .

ثم أنظر ـ حتى يتضح لك مذهبه ـ إلى كلامه وهو يقارن بين خضوع

---

(١) تفسير المنار جـ ١١ ص ١٦٠ والوحي المحمدي : رشيد رضا ص ٧١ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ٢٢٧ والوحي المحمدي : له ص ١٨٤ .

(٣) المرجع السابق جـ ١١ ص ١٥٩ والوحي المحمدي : له ص ٧٠ .

أولئك للمعجزات وخضوع آخرين للسحرة والمشعوذين يقول « وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سببا ، وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فالآتي به مظهر للخالق سبحانه إن لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك »[1]!!

وهو كزملائه رجال المدرسة العقلية يقرر أن العقل لا يخضع للمعجزات « إن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها لأن البشر قد بدءوا يدخلون في سن الرشد والإستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لا تباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي ليربي البشر على الترقي في هذا الإستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال »[2].

نخلص من هذا إلى أن رجال المدرسة العقلية لا يحيلون وقوعها بل هي عندهم « جائزة عقلاً أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما فلا مانع من وقوعها بقدرة الله تعالى في يد نبي من الأنبياء ويجب ان نؤمن بها على ظاهرها »[3] ولكنهم يخصون هذا بفترة ما قبل رسالة محمد ﷺ أما في عصره عليه الصلاة والسلام « فانتهى بذلك زمن المعجزات ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل

---

(١) تفسير المنار : جـ ١١ ص ١٦٠ والوحي المحمدي : له ص ٧١ .
(٢) تفسير المنار ؛ رشيد رضا جـ ١١ ص ١٥٩ والوحي المحمدي: له ص٦٩ .
(٣) تفسير المنار : رشيد رضا جـ١ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

عن الإعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية (النوعية) بل أرشده الله تعالى بالوحي الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي »[1].

ويرى الشيخ محمد عبده أن المعجزات إنما هي لأولئك الأقوام الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان ولا يضر الإسلام أن يروي تلك المعجزات فمجرد روايته لها لا ينفي عنه أنه دين العقل ما دام لم يرد فيه شيء منها . يقول الشيخ عبده « فأيماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطره وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان من أن سننه تعالى في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل »[2].

إلى هذا ذهب رجال المدرسة العقلية الحديثة في أمر معجزات الأنبياء السابقين أثبتوا وقوعها وأنكروا حجيتها وتأثيرها عند أهل العقول الراقية ؟!

معجزات محمد ﷺ : ـ

ولهم في أمر معجزات ﷺ رأي آخر هو غير ذاك بل هو أشد منه خطراً ذلكم أنهم أنكروا معجزاته عليه الصلاة والسلام كلها سوى معجزة القرآن الكريم وجردوا نبوته من أي معجزة أخرى وسلكوا في ذلك سبلاً . أما بإنكار صحتها وأما بتفسيرها بأمر لا تكون به معجزة وأقربهم إلى الحق على بعده عنه من أثبت بعضها ولكن أنكر أن يكون ورودها لإقامة الحجة على نبوته ﷺ بل هي رحمة من الله تعالى وعناية به ﷺ وبأصحابه في الشدائد .

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣١٥ .

(٢) تفسير المنار : رشيد رضا جـ ١ ص ٣١٥ .

وهم في مقابل إنكارهم هذا حاولوا أن يعوضوا ذلك بإثبات الإعجاز لأمور ليست من المعجزات ؟ وإنما أثبتوا له معجزة القرآن لأنها معجزة عقلية أما ما سواها فليست معجزات عقلية لأنها مما تعيا العقول بها وما تعيا العقول به فليس عقلياً يقول الشيخ محمد مصطفى المراغي في تقديمه لكتاب حياة محمد للأستاذ محمد حسين هيكل : ـ « ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية وما أبدع قول البوصيري .

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا، فلم نرتب ولم نهم»[1]

ويردد هذا الكلام أيضاً السيد رشيد رضا « وأما آيته ـ أي محمد ﷺ ـ التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن وأمية محمد عليه الصلاة والسلام ، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان .

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة ، في رواياتها وفي صحتها وفي دلالتها ، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر »[2].

ويقول « هذا وإن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة وبالمرسلة أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل ما رواه الإنجيليون وأبعد عن التأويل ، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل

---

(١) حياة محمد : محمد حسين هيكل مقدمة الشيخ محمد مصطفى المراغي ص ١٣ .

(٢) تفسير المنار جـ ١١ ص ١٥٥ .

نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها لأن البشر قد بدؤا يدخلون في سن الرشد والإستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون »[1] ثم يقول « وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد »[1] ثم يجمل لنا قوله « وجملة القول أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية[2] . . »؟!

ويرد السيد رشيد على الذين اعترضوا على حسين هيكل لتجريده نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من المعجزات في كتابه « حياة محمد » فيقول مدافعاً عن هيكل : ـ « أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون (!!) على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي من جميع مناحيها ومطاويها في الفصل الثاني وفي المقصد الثاني ـ من الفصل الخامس ، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة ، لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل وبينت سبب هذا الإفتتان والفروق بين ما يدخل منها في عموم السنن الكونية والروحية وغيره »[3] .

ويثبت الشيخ ـ عبده ـ ذلك بقوله « نبي صدق الأنبياء ولكن لم يأت

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١١ ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١١ ص ١٦١ .

(٣) مجلة المنار المجلد ٣٤ الجزء العاشر ص ٧٩٣ تاريخ ٣ مايو ١٩٣٥ م .

في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له وأختص العقل بالخطاب وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة »[1] ويقول « ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الإعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية النوعية بل أرشده الله تعالى بالوحي الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي »[2] وقال أيضاً « فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية »[3].

أما الشيخ عبد العزيز جاويش فهو يرى أن الله سبحانه وتعالى أبى إلا أن يؤيد هذا الدين بالمعجزة التي لا تنافر فطرته وهي القرآن الكريم ، أما المعجزات الخارقة فلم يؤيد الله بها رسوله محمداً ﷺ قال الشيخ جاويش « كما يقص ـ أي القرآن ـ علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله ، ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها ولكن علمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها واستنكرتها أنفسهم بغياً وعلواً ولهذا يبين لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هي

---

(١) رسالة التوحيد : محمد عبده ص ١٤٣ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣١٥ .

(٣) الإسلام والنصرانية : محمد عبده ص ٦٨ .

القرآن الكريم نفسه »[1].

وقال بهذا السيد محمد فريد وجدي فهو يرى أن العقل البشري قد تم وكمل فلم تعد المعجزات تجدي فيه ولا تنفع معه ويستدل على هذا بتكذيب « علماء أوروبا » لهذه المعجزات ويجعل هذا كله سبباً لصرف الإسلام النظر عن المعجزات وتوجيهه إلى الأدلة العقلية وقواعد العلم يقول الأستاذ وجدي : - « وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الإنساني رشده فلا تجدي فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية » « ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو إن كان تهوراً منهم إلا أنهم مصيبون في قولهم أننا في زمان لا يجدي فيه للإعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي » « لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق ببدائه العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ما لا تؤثره عليها الخوارق للنواميس الطبيعية »[2].

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت « أن الذي أعطاه الله إياه - يعني محمداً ﷺ - من المعجزات كان غير الذي أعطاه للأنبياء السابقين كان « وحياً » يسمع ويفهم ويعقل فيدرك العقل منه جهات إعجازه ولا ينقرض بانقراض زمنه ولا بموت صاحبه بل يظل قائماً محفوظاً بحفظ الله الذي أوحاه »[3].

حقاً لقد قال رسول الله ﷺ عن القرآن الكريم « وإنما كان الذي

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية : عبد العزيز جاويش ص ١٤٨ .
(٢) المدنية والإسلام : محمد فريد وجدي ص ٧١ - ٧٢ .
(٣) الفتاوي : محمود شلتوت ص ٤٨ - ٤٩ .

أوتيت وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] ولكنه عليه الصلاة والسلام لا يقصد بهذا أن يصف معجزات الأنبياء عليهم السلام بأنها لا تسمع ولا تفهم ولا تعقل وأن معجزته ﷺ هي التي تسمع وتفهم وتعقل وإنما أراد أن معجزته لا تنقرض بانقراض زمنه ولا بموته وإنما هي خالدة ومعجزاتهم عليهم السلام منقطعة ولهذا يرجو أن يكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة والله أعلم .

وحينما نسأل عن الذي دعاهم إلى الوقوف مثل تلك الوقفة أمام المعجزات عموماً وفي دين الإسلام خصوصاً نجد أن السبب يكمن ـ والله أعلم ـ في اتصال أولئك برجال الغرب الأوروبيين في فترة كانت العلاقة بين الكنيسة ورجال العلم في أوروبا لا تزال فيها بقية من الإنفصال وبقية من الركود وسوء العلاقات ، كان رجال العلم في أوروبا ينفرون من تعاليم الكنيسة على أنها هي تعاليم الدين الصحيح فنفروا منها ومن الدين كله وأسسوا علومهم وبنوا قواعدهم على أنها معارضه ومبطلة لأصول الدين .

اتصل أولئك الرجال بهم ورأوا موقفهم من الدين فأرادوا أن يتقربوا إليهم ويشرحوا لهم أن الدين الإسلامي هو الدين الذي لا يشتمل على تلك الأمور المخالفة للعقل ولقواعد العلم ، وعالجوا تلك القضايا بكثير من التسامح لحساب القواعد العلمية غير الثابتة على حساب الدين الإسلامي .

عالجوا فيما عالجوا ـ بزعمهم ـ قضية المعجزات التي وقفت حجر عثرة في طريقهم فوافقوا رجال الغرب أن المعجزات لا تصلح للإحتجاج ولا تقوم بها الحجة .

ثم قالوا أن هذه المعجزات إنما وردت في الأديان السابقة على الإسلام ، ولا يضير الإسلام ولا يجعله مخالفاً لأحكام العقل إذا ما

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

رواها ـ مجرد رواية ـ ما دام لم يرد فيه شيء منها « فإيماننا بما أيد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة »[1] .

ثم زعموا أن الإسلام لم يرد فيه شيء من تلك المعجزات لإقامة الحجة بل حجته هي الأدلة العقلية والقواعد العلمية التي تنادون بها يا رجال أوروبا ويا أحرار الإفرنج !

كانت تلك ـ فيما نرى ـ هي قصة أولئك مع رجال العلم في أوروبا وهي سبب موقفهم من المعجزات .

ولا يذهبن بك حسن الظن أو سوءه مذهباً في تقييمهم ولندع الحديث لرجل منهم يشرح لنا سر علاقتهم بالغرب وكيف كانت هذه العلاقة سبباً لاستبطان كثير منهم ـ باعترافه ـ الإلحاد مع عدم إظهارهم له لأن الأمر أكبر من أن يحاوله . يقول الأستاذ محمد فريد وجدي وأرجو إخواني أن يمعنوا معي دراسة قوله هذا وأرجو أيضاً أن يقرأوا ما بين السطور قبل قراءتهم السطور فإنها تخفي بينها ما هو أكبر منها يقول وجدي : ـ « في تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره حتى تغلب عليها ، فدالت الدولة إليه في الأرض فنظر نظرة في الأديان ، وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميثولوجيا[2] ثم أخذ يبحث في اشتقاق أصولها بعضها من بعض ، واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد الإنسان لها نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله .

وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا : جـ ١ ص ٣١٥ .

(٢) أي علم الاساطير .

يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميثولوجيا ، ووجد دينه ماثلاً فيها ، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة[1] متى وصلوا إلى درجته العلمية .

وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دساً في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض[2] .

وقد عثرنا نحن في جولاتنا العلمية على ما عثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق ، لولا أن منّ الله علينا بوجدان المخلّص منها وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[3] الآية فسجدنا شكراً لله وقلنا هذه مانعة الصواعق بل مانعة الغرق فتشبثنا بها وادخرناها إلى وقتها ثم أفضينا بها إلى الناس واثبتناها في بعض مؤلفاتنا .

هذا موقف منطقي لدين يعلن السلطان المطلق للعقل ، والدولة الخالدة للعلم ويجرد الإنسان من كل أوهامه وأهوائه ووراثته ليصل به الى إباحة النظر الحر والتفكير المستقل »[4].

ذلكم بيان واف أفضى به الأستاذ وجدي عن أولئك الذين اتصلوا بالغرب وإلى أي حال وصلوا من استبطان الإلحاد وهو قد اعترف بوقوعه

---

(١) يقول « كافة » ترى كم وصل من هؤلاء إلى تلك الدرجة ؟ !

(٢) إعتراف خطير يوجب على علماء المسلمين إعادة تقييم كتاب وشعراء ذلكم العصر وفي مقدمتهم رجال المدرسة وفي مقدمتهم الافغاني وعبده .

(٣) سورة آل عمران : من الآية : ٧ .

(٤) جريدة الأهرام المصرية في ٣٠ / ٨ / ١٩٣٣ م ص ٣ مقال مذهب القرآن في المتشابهات : محمد فريد وجدي .

بنفسه فيه ، وذلك بوصوله إلى تلك الدرجة ثم نجاته منها بتلك الآية التي فهم منها أن يلقي كل ما لا يفهمه عقله من أمور المعجزات ونحوها في بحر المتشابهات .

وما يدرينا بأن من أنواع استبطان الإلحاد الظهور بمظهر المدافع عن الإسلام وعن عقائده مع الدس والتزييف ؟ ! بل وما يدرينا أن من أنواع الإستبطان هذا الإعتراف بالوصول إلى درجة الإلحاد ثم النجاة منها ؟!

أما تعيين الأفراد من وصل منهم إلى درجة الإلحاد واستبطانه فإنها مهمة شاقة ألقاها الأستاذ وجدي على علماء المسلمين ـ من حيث يدري أولا يدري ـ توجب عليهم كافة إعادة تقييم الرجال في تلك الفترة تقييماً لا يخضع للشعبية التي يلقونها بين علماء خدعوا بها بل يوجب التجرد من التأثر والبحث عن الحقائق والوثائق .

ليس هذا استطراداً مني في قضية جانبية بل هو بيان لموقف أولئك من المعجزات وسر ذلكم النفي لحجية المعجزات والتقليل من شأنها .

ذلكم أن تجريد نبوته ﷺ من تلك المعجزات إنما يقصد به طائفة منهم إثبات عبقرية محمد ﷺ لا نبوته ، وهم حينما يثبتون هذا يزعمون أنه كسب عظيم للقائلين بنبوته أرأيتم إلى أيّ حال يصل الأمر حينما يجرد أولئك رسالته عليه الصلاة والسلام من المعجزات ؟! أي حق يبقى لدين جاء به عبقري ولم يأت به نبي من الله ؟!

لنقرأ قول الأستاذ وجدي وهو يقرر عبقرية محمد ﷺ ويعده كسباً للقائلين بنبوته وما رأيت خسارة فادحة تسمى كسباً عظيماً إلا بهذا المقياس الذي يقيس به وجدي ، يقول « ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمي أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصاً عظيماً ، إن لم يغفل اغفالاً تاماً ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمراً طبيعياً ، فتفقد النبوة صفتها المميزة ، وتصبح سيرة النبي كسيرة أحد عظماء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم فتكون

النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

نقول : لا ، فإننا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث وعزوها إلى عللها القريبة ، فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائراً ، لا يستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد وسيكون مضطراً بأن يعترف بأن محمداً ﷺ كان عبقرياً من طراز خاص فاق به جميع العباقرة وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته لأن العبقرية في العلم لا تعني ما تعنيه في عرف العامة ، هي في العلم ما يلقى في روع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجيء فذاً لا سابقة له ، يتخذ مثالاً لغيره ولا يمكن تقليده فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تقرب معنى النبوة إلى العقل ، وتسوغها في العلم »[1].

وهذا الكلام كثر ترديده بين الكتاب في تلكم الفترة وهم يساومون على نبوته ﷺ ويكفيهم ثمناً لها الإقرار بعبقريته ويعدونه كسباً عظيماً . يقول زكي مبارك : ـ « كان محمد إنساناً قبل أن يكون نبياً وذلك من أعظم الحظوظ التي غنمها في التاريخ فسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد »[2].

كثر ترديد هذا الوصف لنبينا علية الصلاة والسلام حتى ألف فيه بعضهم كتباً مستقلة عن عبقرية محمد كما فعل الأستاذ العقاد وهو وإن لم يشاركهم إثبات العبقرية على حساب النبوة إلا أنه شاركهم في الترويج لهذه الدعوة الهدامة .

ولا تحسبن أن القوم يدعون إلى العبقرية إضافة إلى النبوة فهو من

---

(١) مجلة الأزهر الجزء الأول المجلد العاشر محرم ١٣٥٨ مقال « السيرة » المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » للأستاذ محمد فريد وجدي ص ١٥ .

(٢) مجلة الرسالة العدد ٢٩٧ ص ٥٠٧ في ٢٢ محرم ١٣٥٨ هـ ١٣ مارس ١٩٣٩ م مقال « النواحي الإنسانية في الرسول » زكي مبارك .

زيادة الثناء والإعجاب بل هم حين يصفونه علية الصلاة والسلام بالعبقرية فإنهم يثبتونها على حساب نبوته عليه الصلاة والسلام وأكبر دليل على هذا إنكارهم للمعجزات والمعجزة والنبوة سيان في كونهما من الأمور الغيبية الخارقة لسنن الكون بل إن المعجزة من أدلة الإثبات للنبوة ومن ينكر المثبت فهو إلى إنكار المثبت أقرب « وسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية » ؟!

وقد يقرون لمحمد عليه الصلاة والسلام نبوة هي غير النبوة المعروفة عند السلف وذلك بإثبات عبقرية له من طراز خاص !! فاق بها جميع العباقرة ـ كما مر ـ ويدعون أن هذه هي النبوة أو قريب منها وسيأتي تعريف شيخهم لها .

يقرون له بالنبوة على هذا النحو الذي لا قيمة له ولا اعتبار بين المسلمين كما يقرون بالمعجزات لكن ليست كما يعرفها السلف أيضاً بل هي أمور لا يصح اعتبارها من المعجزات كما فعل الأستاذ وجدي في سلسلة مقالاته « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » التي نشرها في مجلة الأزهر فينكر المعجزات الحقيقية ويثبت الإعجاز لما دونها حيث يقول « تمتاز العصور النبوية بالخوارق للنواميس الطبيعية فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير في حمل الشعوب التي شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم ، وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي صاحبت الدعوى في جميع أدوارها وكانت أعظم شأناً وأجل أثراً من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس[1] من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه ، ولكني أقصد تلك الإنقلابات الأدبية

---

(١) اسلوب جديد في التشكيك بالمعجزات« ما تناقله الناس » ؟ !

والإجتماعية التي تمت على يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن وقد أعوز أمثالها في الأمم القرون العديدة والآماد الطويلة »[1].

وقال « وقد لاحظ قرآؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت والمحافظة على إقامة الدستور العلمي ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة »[2].

ذلكم ما يؤدي إليه تجريدهم نبوة محمد ﷺ من المعجزات أدّى بهم إلى أن عدّوا الإقرار بعبقريته كسباً عظيماً للقائلين بنبوته ، وهم يحسبون العبقرية إذا كانت من طراز خاص هي النبوة أو قريب منها ، يؤيد هذا الوصف ذلكم التعريف الذي جاء به شيخهم للنبوة وهو يريد أن يأتي بكل ما هو جديد لأنه « سئم من الإستمرار على ما يألفون واندفع إلى طلب شيء مما لا يعرفون »[3] فكان مما جاء به مما لا يعرفون ذلكم التعريف للنبوة الذي أورده في تعليقاته على شرح الجلال الدواني للعقائد العضدية حيث يقول « قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق ، علماً وعملاً ، بحيث لا يعلم إلا حقاً ، ولا يعمل إلا حقاً ، على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة ، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر ، ولكن التعليم الإلهي ، فإن فطر أيضاً على دعوة بني نوعه إلى ما جبل

---

(١) مجلة الأزهر المجلد الحادي عشر الجزء السابع مقال « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » محمد فريد وجدي ص ٣٨٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٥ .

(٣) تاريخ الأستاذ الأمام : محمد رشيد رضا الجزء الأول ص ١١ .

عليه فهو رسول أيضاً وإلا فهو نبي فقط وليس برسول »[1] ثم يصف تعريفه هذا بالدّقة ويوصي بالتفكر فيه « فتفكر فيه فإنه دقيق » .

ذلكم هو التعريف « الجديد » الذي جاء به شيخ المدرسة ، وكان أولئك التلاميذ الذين عملوا بمبادىء شيخهم يعدون إثبات عبقرية محمد كسباً عظيماً للقائلين بنبوته ، وما ذلكم إلا بعد أن جردوا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من المعجزات ورأوها بعد تجريدها لا تعدو العبقرية فقالوا بها ودعوا إليها وألزموا أنفسهم بأنفسهم .

فلا عجب إذن أن يرد الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية هذا التعريف للنبوة والرسالة من الشيخ عبده ويرفضه بقوله « وأنا أقول ليس في تعريف الشيخ شيء من خصائص النبوة والرسالة لا وحي ولا ملك مرسل ولا كتاب منزل ولا معجزة ، وعليه فمن أين يعرف كونه « لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً » من أين يعرفه هو نفسه ؟ ومن أين يعرفه بنو نوعه إذا دعاهم ؟ نعم في تعريف الشيخ « ولكن التعليم الإلهي » لكنه يمكن حمل هذا التعليم أيضاً على الفطرة ، ثم يرد عليه السؤال المذكور : من أين يعرف أنه تعليم إلهي ؟ »[2].

ثم يذكر الشيخ مصطفى صبري أن القصد من قيد « التعليم الإلهي » ذر شيء من الرماد في بعض الأعين أو دس في الكلام لا من نوع دس السم في الدسم بل من نوع دس الدسم في السم[2].

ذلكم التعريف ونحوه من أقوال الشيخ محمد عبده كانت منهجاً لتلاميذه من بعده في إنكار المعجزات بإنكار حجيتها ونفيها عن الدين الإسلامي وكأنها عيب أو نقص يجب تطهير الإسلام منه .

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : تحقيق سليمان دنيا جـ ١ ص ٣ - ٤ .

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ٤ ص ٤١ - ٤٢ .

وقصروا معجزات نبينا محمد ﷺ على معجزة القرآن الكريم ووصفوها بأنها معجزة عقلية وكأنهم بهذا القصر يريدون إنقاذ حياته عليه الصلاة والسلام من شائبة المعجزات الكونية المخالفة للعلم وسنن الكون .

ولأجل هذا الهدف تجرأوا على ما ورد من الروايات الصحيحة في السنة لبعض المعجزات فأبطلوها وتجرأوا على رواتها فقدحوا فيهم وجرحوهم ولم يفرقوا أو أكثرهم بين صحابي أو تابعي أو سواهم .

بقي هنا أمر يرد عليهم في إبطال ما ورد من المعجزات لنبينا ﷺ وقصر معجزاته على معجزة القرآن الكريم يرد هذا الأشكال عند تفريقهم بين المعجزات والقرآن ويورده الشيخ مصطفى صبري « ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن إرضاءً لمفكري المعجزات والخوارق من المستشرقين وتفضيلاً لموافقتهم في عقلية الإنكار على تجشم معارضتهم . إن القرآن مهما حبب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ﷺ وقد يطمع منهم أن يعدوه أفضل كتاب في الدنيا وضعه البشر أما أنه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والخوارق . وما دام أناس من المسلمين وفيهم معالي مؤلف « حياة محمد » ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها إلى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضاً مخالفة لسنة الكون مخالفة للعلم ، مخالفة لمقتضى العقل فكيف ينتظر من المستشرقين الذين لا يدينون بالإسلام أن يقبلوا القرآن على أنه من المعجزات الخارقة أعني أنه كلام الله لا كلام سيدنا محمد ؟ فالواجب إذن أن يداوى أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين من جباهها »[1].

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ٤ ص ١١١ .

ذلكم هو العلاج لما وقعوا فيه علاج لأساس الداء وذلكم الداء هو الزعم بأن العقل لا يقبل الإستدلال بالمعجزات وحينما نصل إلى علاجه لا يبقى أمامنا رد لحديث صحيح ولا تأويل باطل لآية قرآنية ولا اضطراب بإنكار معجزاته ﷺ ثم إثبات معجزة القرآن وهما سيّان من ناحية ثبوت الإعجاز ووقوعه .

ذلكم ما نراه الصواب في هذه القضية والله الهادي إلى سواء السبيل ونقول لهؤلاء الذين يحسبون المعجزات لأحكام العقل خارقة رويدكم ليس الأمر كما تظنون وليست القضية كما تعتقدون فالمعجزات ليست أمراً خارقاً لأحكام العقل بل هي أمر خارق للعادة وبينهما خصوص وعموم فالخارق لأحكام العقل أعم من الثاني ذلكم أن كل خارق لأحكام العقل فهو خارق لحكم العادة وليس كل خارق لحكم العادة خارقاً لحكم العقل .

ونضرب لأحكام العقل مثلاً بحكمه باستحالة أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في نفس الوقت أو أن يكون الشيء أسود وفي نفس الوقت أيضاً هو أبيض أو أن يكون الإنسان جالساً قائماً في آن واحد .

ونضرب لأحكام العادة مثلاً بإنكسار الزجاج حين يرمى بالحجر وعدم تحول العصا إلى ثعبان عند إلقائها وعدم حياة الميت في الدنيا وإحراق النار للإنسان الذي يدخل فيها وعدم خروج الماء من بين أصابع الإنسان وصمت الحصى وعدم سماع تسبيحه وكذا صمت الجذع وعدم سماع حنينه .

والمعجزة التي جاء بها الأنبياء خارقة لأحكام العادة وليست خارقة لأحكام العقل فلا يحكم العقل ببطلان ما يخالف أحكام العادة ، بل يؤمن بعدم إنكسار الزجاج إذا رمي بالحجر ويؤمن بعدم حرق الإنسان عند دخوله النار ويؤمن بنبع الماء من بين أصابع الإنسان ويؤمن بتسبيح الحصى وحنين الجذع لأن ذلك كله ليس خارقاً لأحكامه بل هو خارق

لأحكام العادة .

وهو حينما يؤمن بهذا لا يؤمن به على أنه أمر « عادي » بل يؤمن به على أنه أمر « غير عادي » أي مخالف لأحكام العادة ثم يذهب بعد هذا يطلب سبباً لهذا الخارق للعادة حتى يصل إلى الحقيقة إما معجزة نبي أو سحر ساحر أو شعوذة مشعوذ .

التبس هذا الأمر على طائفة من الناس فردوا المعجزات أو أولوها لاعتقادهم أنها مخالفة لأحكام العقل الذي به يؤمنون وإلى أحكامه يستندون وهم في ذلك واهمون .

ثم لا يحسن بنا وقد وصلنا إلى هذه المرحلة من بيان لموقف أولئك من المعجزات عموماً ومعجزاته ﷺ خصوصاً من غير أن نضرب لذلك أمثلة وذكر تأويلهم لها .

إحياء الموتى :

قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾[1] إلى قوله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا واللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ المَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2] .

وقد سبق لنا عند بيان منهج المدرسة العقلية الحديثة في قصص القرآن أن ضربنا مثلاً هذه القصة ، ليس من ناحية الإعجاز، وإنما من ناحية القصة فيها ، وذكرنا هناك حملهم هذه القصة على أنها تمثيل لا حقيقة .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٦٧ .

(٢) سورة البقرة الآيتين : ٧٢ و ٧٣ .

ونتناولها هنا من ناحية كونها معجزة لموسى عليه السلام حيث أحيا بها ميتاً بإذن الله إذ أن من معجزاته عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله .

ويجب أن نربط هنا بين موقف رجال هذه المدرسة العقلية من هذه الآيات كمعجزة وموقفهم منها كقصة ذلكم أن موقفهم الثاني منها كقصة إنما تولد عن موقفهم الأول كمعجزة شق عليهم الإيمان بإحياء الموتى كمعجزة لموسى عليه السلام فحملوا القصة على التمثيل .

وخلاصة القصة أنه كان في بني إسرائيل رجل غني وليس له ولد وكان له قريب وارث فقتله ليرثه ثم ألقاه في الطريق وطالب قومه بإخراج قاتله فاحتكموا إلى موسى عليه السلام فأمرهم أن يذبحوا بقرة ـ كما ورد في القرآن ـ ثم ذبحوها وأمرهم موسى أن يضربوه ببعضها فضربوه فقام وأخبر بقاتله ثم مات فكانت حياته آية لموسى عليه السلام وحجة على المعاد .

ثم إن الآيات الكريمة تنص نصاً صريحاً بوقوع ذبح البقرة منهم « فذبحوها » وليس هناك قرينة تصرفه عن الحقيقة ثم تنص الآيات أيضاً على الأحياء « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى » وقال قبل ذلك « والله مخرج ما كنتم تكتمون » ولا يفهم من هذا أبداً أن يراد بالإحياء إلا الحياة على معناها الحقيقي وليس هناك من قرينة لحملها على الحياة بالمعنى المجازي بمعنى استبقاء حياة أناس آخرين على حدّ قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1].

لكن الشيخ ـ عبده ـ وتلميذه ـ رشيد رفضا هذا القول وحملا القصة على أنها نوع من التشريع الذي كان موجوداً في زمن بني إسرائيل لأجل الوصول إلى معرفة القاتل المجهول في هذه الحادثة وأمثالها لا على أنها وردت في حادث معين ظهرت فيه معجزة لموسى عليه السلام وهم

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ١٧٩ .

يستندون في زعمهم هذا إلى ما ورد في التوراة قال الشيخ محمد عبده « يقول أهل الشبهات في القرآن أن بني اسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن ؟ ونقول : ـ إن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به وإنهم لم يؤتوا إلا نصيباً من الكتاب على أن هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي ثم يقولون أن أيدينا لم تسفك هذا الدم إغفر لشعبك إسرائيل ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى »[1].

وشد أزره بهذا الرأي السيد محمد رشيد رضا بقوله « وأقول إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الإشتراع ونصه »[2] ثم ساق النص وهو قريب مما ذكره شيخه ثم قال بعد هذا «والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة بريء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية »[3].

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٤٧ .
(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥١ .

ومن هذا ترى كيف حملوا القصة على أنها حكم شرعي عندهم لا على أنها أمر طاريء أظهر الله به معجزة هي إحياء الميت على يد موسى عليه السلام أمام قومه ليعتبروا بها ولتكون حجة لإثبات المعاد وليريهم الله كيف يحي الموتى .

وإنا لفي حيرة من ذلكم الشيخ وتلميذه اللذين امتلأت كتبهما تشدقا بالتحذير من الإسرائيليات وذمهما وتجريحهما لكعب الأحبار ووهب بن منبه لرواية الإسرائيليات إلا أن الشيخين الفاضلين هنا لا يجدان غضاضة أن يصرفا آيات القرآن الكريم عن ظاهرها ليس استناداً إلى آيات أخرى ولا إلى سنة نبوية ولا إلى حكم عقلي صحيح يوجب هذا وإنما استناداً إلى ما جاء في التوراة واعتباره ثابتاً صحيحاً معتمداً يجوز صرف القرآن عن ظاهره وتأويله على مقتضاه ، وتقرباً إلى أولئك الإفرنج الذين أنكروا وجود هذه القصة في التوراة ، فألزم هذان الشيخان نفسيهما بصرف الآيات عن ظاهرها إلى معنى توافق فيه ما جاء في التوراة حتى يرضى عنهم أولئك الأفرنج .

وهم حين يفعلون هذا بالقصة فإنما يفعلونه ليتسنى لهم إبطال معجزة موسى عليه السلام وتأويل إحياء الموتى الوارد في الآيات على المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي قال السيد رشيد رضا « ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحييها بمثل هذه الأحكام وهذا الإحياء على حدّ قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[1] وقوله ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ فالإحياء هنا معناه الإستبقاء كما هو المعنى في الآيتين . ثم قال ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ بما يفصل بها في الخصومات ، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات فهو كقوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾[2] واكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رسله وليس عندي شيء عن شيخنا في تفسير هذه

---

(١) ٥ : ٣٢
(٢) ٤ : ١٠٥

الجملة ، ولكنه قال في تعليلها ما يرجح القول الأول وهو ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت »[1].

ويلتمس الشيخ محمود شلتوت عذراً لهما ألجأهما إلى سلوك هذا فيقول « والذي حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته في التخلص من الإعتراض الذي ذكره بعض المستشرقين مع وجود النص التشريعي الذي أشار إليه الشيخ بمعناه ونقله الشيخ رشيد بنصه »[2].

وهذا اعتذار غير مقبول وغير مقنع إذ أن الشيخ شلتوت نفسه لم يقنع بهذا العذر الذي التمسه لهما فذهب يرد على تأويلهما وهو أمر نحمده للشيخ شلتوت هنا ، حيث قال : ـ « هذا صنيعهما ، وبذلك يتبين أنهما توافقا على أن الآيات مسوقة لبيان حكم تشريعي لا لبيان حادث تاريخي ، ولكننا إذا نظرنا إلى النص في هذه الآيات وما ذيل الكلام به من قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ وجدنا هذا النص إن لم يمنع من الحمل على أرادة الحكم التشريعي فلا أقل من أن يبعده إبعاداً وذلك بأن كلمة « اضربوه » واضحة في أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة ، وليس في الكلام إشارة تتعلق بالقاتل الخفي ، ولا إشارة إلى غسل أيدي أهل الحي من دماء البقرة ،وقوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى ﴾ يدل على أن الإحياء المشبه به وهو الإحياء في هذا المقام ـ إحياء حقيقي بعد موت تسلب فيه الروح ، وليس إحياءاً حكمياً يحصل بمعرفة القاتل والإقتصاص منه حتى يكون بمثابة ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ كما يريد الشيخان ، ولو كان الأمر كما يقرران لما صح تقرير إحياء

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٣٥١ .

(٢) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٤٣ ـ ٤٤ .

الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الإحياء الحكمي المجازي ، ولو أن قائلاً قال إن الله يحي النفوس الجاهلة بالعلم وكذلك يحي الموتى من قبورهم لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغاً . وإن قوله تعالى ﴿ويريكم آياته﴾ لواضح في الإراءة البصرية للآيات الكونية لا في الإراءة العقلية للأحكام الشرعية حتى يكون من قبيل ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ وإن قوله بعد ذلك : ـ ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ليدل على أنهم رأوا حالة مادية من شأنها أن تؤثر في النفوس ، ومن شأن القلوب أن ترق لها وأن تتجرد من القسوة والعناد عندها ، ومع ذلك لقد قسوا واشتدت قسوتهم وكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي فهذا الحمل تأويل منهما لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب »[1].

ويرجع الدكتور رمزي نعناعه هذا السلوك من السيد رشيد إلى المبالغة في تحكيم العقل ثم يكشف ما يؤدي إليه هذا القول من إلحاد فيقول « ونقول أخيراً للسيد رشيد أن مبالغته في تحكيم العقل جعلـه يستبعد حصول مثل هذه المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام ، فمن ثم أول الآية لصالح التوراة ! ولا أدري كيف خفي عليه ـ وهو المدافع عن الإسلام ـ أنه يوجد في هذا الزمن نوع من الإلحاد الخفي المآل ، وهو تأويل كل آية أو حديث صحيح يدل على معجزة رسول من الرسل ، حتى يكون مفادها أمراً غير خارق للعادة وهذا النوع أخطر أنواع الإلحاد لأنه سبيل إلى إنكار الأديان السماوية ، وإلى هدمها من أساس ، لأن أساس إثباتها المعجزات التي أجراها الله على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام »[2] .

ذلكم تأويل الشيخ عبده والسيد رشيد لهذه المعجزة .

تقرباً إلى أولئك الإفرنج المستشرقين ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا

---

(١) تفسير القرآن الكريم : محمود شلتوت ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) الإسرائيليات : رمزي نعناعه ص ٣٦٦ .

النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[1].

وفراراً من إثبات المعجزة بتكلف ظاهر صرّح بسلوكه الأستاذ وجدي حين قال « وقد لاحظ قرآؤ نا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل حادثة الى ناحية الإعجاز ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت »[2] .

من معجزات عيسى عليه السلام : ـ

قال الله سبحانه وتعالى مثبتاً معجزة لعيسى عليه السلام أظهرها سبحانه على يديه ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيل وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[3]وقال سبحانه مثبتاً وقوع هذه المعجزة منه عليه السلام بعد امكانها : ـ ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾[4] الآيَة

فثبت بنص القرآن الكريم وقوع هذه المعجزة لعيسى عليه السلام وحصولها منه ، ويرى الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد في تفسير آية آل عمران أن

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ١٢٠ .

(٢) مجلة الأزهر المجلد الحادي عشر الجزء السابع مقال السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ، محمد فريد وجدي ص ٣٨٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآيتين ٤٨ و ٤٩ .

(٤) سورة المائدة : من الآية : ١١٠ .

هذا يدل على إمكان وقوعها لعيسى عليه السلام ولا يدل على وقوعها من غير رجوع إلى آية المائدة وهما ـ أيضاً ـ لا يستندان في نفيهما الوقوع إلى نص من الكتاب أو السنة ، وإنما إلى عدم تناقل النصارى لهذا (!!) خاصة في الأناجيل القانونية عندهم أما الأناجيل غير القانونية التي ورد فيها الإخبار بمجيء محمد ﷺ وكون عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ونحو ذلك فلا قيمة لهذه الأناجيل !! وإنما المستند إلى تلك التي لم يرد فيها شيء من ذلك .

ولندع الشيخ عبده يوضح لنا ذلك حيث يقول في تفسير آية آل عمران : ـ « وغاية ما يفهم منها أن الله تعالى جعل فيه هذا السر ولكن لم يقل أنه خلق بالفعل ولم يرد عن المعصوم أن شيئاً من ذلك وقع »[1] ثم يقول « فإن قصارى ما تدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به والحكمة في إخبار النبي ﷺ بذلك إقامة الحجة على منكري نبوته كما تقدم وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك »[1]

ويوضح لنا تلميذه النقل الذي يحتج به في مثل ذلك فيقول : ـ « هذا ما قاله الأستاذ الإمام ومن الغريب أن بن جرير يروي عن بن إسحاق » أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوماً مع غلمان من الكتاب فأخذ طيناً ثم قال أجعل لكم من هذا الطين طائراً ، قالوا : وتستطيع ذلك ؟ قال : نعم بإذن ربي ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه ثم قال كن طائراً بإذن الله فخرج يطير بين كفيه » فكأنه اتخذ آية الله على رسالته ألعوبةً للصبيان والحاصل أنه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصارى الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة في الآية إلا ما في إنجيل الصبّا أو الطفولة من نحو ما قال ابن سحاق وهو من الأناجيل غير القانونية عندهم ، ولعل آية سورة المائدة أدنى إلى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٢١١ .

القُدُس . الآية ﴾[1] فإن جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه إلا أن يقال أن جعلَ هذه الآيات مما يجري على يديه عند طلبه والحاجة إلى تحديه به من أجلّ النعم وأعظمها ، ولكن هذا خلاف الظاهر »[2] .

ذلكم ما ذهبا إليه في تأويل تلك المعجزة لعيسى عليه السلام وقبلها معجزة موسى عليه السلام ولنكتف بهذا من معجزات الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام ، ولنذكر موقفهم من معجزة لنبينا ﷺ غير القرآن الكريم التي لا يثبتون سواها .

انشقاق القمر : -

قال الله تعالى ﴿ إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ ﴾[3].

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقتين فقال رسول الله ﷺ إشهدوا ، وفي أخرى « ونحن معه فقال إشهدوا إشهدوا » وفي أخرى قال « بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين فلقة وراء الجبل وفلقة دونه فقال لنا رسول الله ﷺ إشهدوا أخرجه البخاري ومسلم .

وللبخاري قال : وقال مسروق عن عبد الله « بمكة » وأخرج الترمذي مثله[4] .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال « إن القمر انشق في زمن

---

(١) ٥ : ١١٠

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ٣ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٣) سورة القمر الآية الأولى .

(٤) رواه البخاري في الأنبياء باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر ، وفي فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب انشقاق القمر ، وفي كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب وانشق القمر وأن يروا آية يعرضوا » .

رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر ، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر .

رسول الله ﷺ » أخرجه البخاري ومسلم[1] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن أهل مكة سألوا رسول ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر »[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال « انشق القمر على عهد رسول ﷺ فصار فرقتين فقالت قريش سحر محمد أعيننا فقال بعضهم لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم أخرجه الترمذي[3] وزاد رزين « فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم » .

بتلك الآية الكريمة وبتلك الأحاديث الشريفة وغيرها ثبتت معجزة انشقاق القمر آية لنبينا ﷺ وكان ذلك في مكة قبل الهجرة بهذا قال السلف وسنذكر قولهم بعد قول منكري هذه المعجزة ليكون بمثابة الرد عليهم .

وسار السيد رشيد في هذه المعجزة على نهج المدرسة العقلية من تأويل للمعجزات وإنكار لأي معجزة لنبينا ﷺ سوى معجزة القرآن وذهب السيد رشيد في إنكار معجزة انشقاق القمر مذهب مدرسته في ذلك ، من التشكيك أولاً في تواتر أحاديثها ، ورد ما ورد منها في صحيحي البخاري ومسلم ثم بعد هذا أورد الشبهات العقلية والعلمية على تلك المعجزة .

وسنذكر هنا ما أورده من شكوك في الرواية والدراية حسب قوله : ـ

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة اقتربت الساعة وفي الأنبياء باب سؤال أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية « وفي باب انشقاق القمر ورواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر » .

(٢) رواه البخاري في نفس المواضع السابقة وكذا مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر .

(٣) رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في التفسير باب ومن سورة القمر .

أ) الروايات في انشقاق القمر وعللها : ـ

زعم بعض العلماء المتقدمين أن الروايات في انشقاق القمر بلغت درجة التواتر وهو زعم باطل كقول ابن عبد البر الآتي أنه نقله جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ، وإن تلقاه الكثيرون بالقبول حرصاً على إثبات مضمونه كعادتهم في الفضائل والمناقب ودلائل النبوة .

فأما الشيخان فالذي صح عندهما مسند على شرطهما إنما هو عن واحد من الصحابة (رضي) يخبر عن رؤية وهو عبد الله بن مسعود (رضي) وقد أخرجاه . .

وصح عندهما مرسلاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه من طريق قتادة فقط ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبه بن مسعود أحد الفقهاء السبعة .

وإنما كان هذان الحديثان مرسلين لأن الحادثة وقعت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين ولم يكن ولد عبد الله بن عباس ، وأما أنس فكان في المدينة ابن خمس سنين والخلاف في الإحتجاج بالمرسل معروف ، ومن يحتج بمراسيل الصحابة مطلقاً يبني احتجاجه على أنهم يروون عن مثلهم ولكن ثبت أن بعضهم كان يروي عن بعض التابعين حتى كعب الأحبار (؟ !!) وعلى كل حال لا يصح في مراسيلهم ما اشترط في التواتر من الرواية المتصلة إلى من شاهد المروي ، ورواية الشيخين المتصلة من طريقين فقط »[1] .

ثم ذكر العلة فيما رواه مسلم عن ابن عمر بأنه ليس فيها أنه حدّث عن رؤية .

وذكر العلة فيما رواه الإمام أحمد وابن جرير والبيهقي عن جبير بن

---

(١) يقصد الحديث الأول الذي سقناه عن عبد الله بن مسعود وهو من طريقين الأول سفيان بن عيينه عن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر والثاني الأعمش عن ابراهيم عن أبي معمر .

مطعم (رضى) كذلك واضاف اليه العلة في الإسناد من جهة سليمان بن كثير وولده محمد[1] فقد ضعفهما ابن معين وقال عن حصين بن عبد الرحمن قد كان ثقة إلا أنه تغير فى آخر عمره »[2] .

ثم قال بعد هذا كله : ـ « هذا أقوى ما ورد من الأحاديث في هذه المسألة وعليها اقتصر الحافظ ابن كثير في تفسيره ورواها الترمذي في جامعه وغيره ولها ألفاظ أخرى في التفسير المأثور وكتب الدلائل غربلها الشيخان واختارا ما أشرنا اليه »[3] .

ب) اختلاف المتون في هذه الأحاديث : ـ

ويذكر السيد رشيد تحت هذا العنوان اختلافين في متون هذه الأحاديث :

الأول : في بعض روايات ابن مسعود في الصحيحين أنه قال : انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى ، وفي رواية أخرى أنه قال انشق القمر بمكة »[3] .

والعجيب أن السيد رشيد يورد ما أجاب به الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى من جمع بين الروايتين بأن منى من جملة مكة لأنها تابعة لها ولأن من كان بمنى كان بمكة من غير عكس ، يورد السيد رشيد هذه الإجابة القاطعة لابن حجر رحمه الله ثم لا يمنعه هذا من إيراد هذا الاختلاف في التعبير على أنه إشكال في المتن ولم يرد على قول ابن حجر إن لم يكن له مقنعاً .

الثاني : ما ورد من الروايات نحو « رأيت القمر منشقاً شقتين شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء » ورواية « انشق القمر على عهد رسول

---

(١) الصحيح أنه أخوه لا ولده .

(٢) مجلة المنار المجلد ٣٠ الجزء الرابع ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه » ورواية « رأيت القمر على الجبل وقد انشق فأبصرت الجبل من بين فرجتي القمر » ورواية « فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما » ورواية « فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة » ونحو ذلك ثم قال « فهذه بضعة ألفاظ يخالف بعضها بعضا وقد تكلف الحافظ في الفتح الجمع بين قول بن مسعود شقة على أبي قبيس وهو بمكة وكونهم كانوا في منى فقال يحتمل أن يكون رآه كذلك وهو بمنى كأن يكون على مكان مرتفع بحيث رأى طرف جبل أبي قبيس ويحتمل أن يكون القمر استمر منشقاً حتى رجع ابن مسعود من منى إلى مكة فرآه كذلك وفيه بعد »[1] ولا ندري لم يستبعده السيد رشيد ولكنه يقول « وفي هذا الجمع ضعف من جهات أغربها دعوى احتمال رؤ ية جبل أبي قبيس من منى في الليل وناهيك بغرابة هذا القول في حال طلوع البدر من الشرق ومكة في جهة الغرب من منى ؟ ثم ماذا يفعل بسائر الروايات »[1].

ثم قال « والقاعدة المشهورة عند العلماء في الأدلة المتعارضة التي يتعذر الجمع بينها تساقطها ومن الدائر على ألسنتهم في المتعارضين كذلك « تعادلا فتساقطا » والقطعيان لا يتعارضان »[1].

هذا ما أورده السيد رشيد في هذا الإختلاف بين متون الروايات وإني لأجزم أن السيد رشيد يعرف أن موازنة الشيء لآخر تختلف تبعاً لاختلاف موقع المشاهد فلو نصبت عصا في وسط الغرفة ونظرت إليها موازية لفتحة الباب مثلا ثم انتقلت إلى مكان آخر لرأيتها موازية لعمود النافذة مثلاً وهكذا كلما تنقلت والعصا في مكانها لم تتحرك وكذا الباب والنافذة وإنما الذي تغير هو موقع المشاهد ، وكذا لو نصبت قلمي بين عيني لرأيته موازياً لعمود مقابل مثلاً فإذا أغمضت عيني اليسرى رأيته قد انحرف إلى يمين العمود ولو

---

(١) مجلة المنار : مجلد ٣٠ الجزء الرابع ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

أغمضت عيني اليمنى لرأيته قد انحرف إلى يسار العمود والقلم والعمود ثابتان في مكانيهما وإنما الذي تغير هو زاوية المشاهدة هذا فيما هو قريب منا .

بل الطفل يدرك ـ بله العالم ـ أنه حينما يرى القمر موازياً لعلم في الأرض فإنما يخضع هذا لمكان وقوفه ولو سار ووقف على هذا العلم لرآه موازيا لعلم آخر ولو انحرف يميناً أو شمالاً لرآه موازياً لعلم ثالث ورابع .

إذن فلا عجب في أن يرد من الروايات ما يصف انشقاق القمر بكون شقة على جبل أبي قبيس وشقة على السويداء ، أو يرى آخر أو الرواي نفسه إذا ما تحرك من مكانه نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة أو يرى حراء بينهما أو غير ذلك من الروايات وكلها حق وكلهم صادق فيما قال .

جـ ـ ثم أوردوا من الشبه عدم تواترها

حيث يقول الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره « أن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم ولبلغ حداً لا يمكن أحداً أن ينكره وصار من المحسوسات التي لا تدفع ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلماً ولا غيره إنكارها »[1].

وقال السيد رشيد « . . فلو وقع لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر لشدة غرابته عند جميع الناس في جميع البلاد ومن جميع الأمم . ولو كان وقوعه آية ومعجزة لإثبات نبوة النبي ﷺ لكان جميع من شاهدها من أصحاب النبي ﷺ نقلها وأكثر الإستدلال والإحتجاج بها حتى كان يكون من نقلتها في رواية الصحيحين قدماء الصحابة الذين كانوا لا يكادون يفارقون النبي ﷺ ولا سيما في مثل هذه المواقف كالخلفاء وسائر العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم (رضي) »[2].

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٢٧ ص ٧٧ .

(٢) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الرابع ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

وأوردوا إشكالاً فلكياً :

حيث يقول السيد رشيد « لا يشك عاقل من المؤمنين وغيرهم أن خلقة تعالى للسموات وأجرامها في غاية الإبداع والنظام لا تفاوت فيه ولا خلل وأن سنته تعالى في الخلق لا تتبدل ولا تتحول ، فلا يصدق خبر وقوع تغير فيها إلا بخبر قطعي ثابت مثل ثبوتها وثباتها كآيات الرسل التي أخبر الله تعالى بها ، ومن دونها آيات أرضية لا يتضمن وقوعها ما يتضمنه انشقاق القمر ورجوع الشمس بعد غروبها من مخالفة نظام الكون العام ، ومعارضة قوله تعالى ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقول رسول الله ﷺ « أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته » متفق عليه . وذلك كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ فمثل هذا يقبل في خبره ما صح وإن لم يتواتر ويصير قطعياً »[1].

هـ ـ الإشكال الأصولي الأعظم

هكذا يصف السيد رشيد ما يورده هنا من شبهة على انشقاق القمر حيث يقول : ـ « . . وثبت بالآيات المحكمة الكثيرة القطعية الدلالة أن الكفار طالبوا النبي ﷺ بآية من الآيات الكونية التي أوتي مثلها الرسل على الإبهام ، وأنهم اقترحوا عليه آيات معينة أيضاً فلم يجابوا إلى طلبهم »[2] ومما أورده السيد هنا من الآيات قوله تعالى في سورة يونس ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُل إِنَّما الغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ ﴾[3] وفي سورة الإسراء ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً ﴾[4] .

---

(١) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٣ ، ولا تعتقدن أنه بقبوله لما ورد من نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم أقرَّ بمعجزة له صلى الله عليه وسلم فهو يقبل هذا ليس على أنه معجزة بل على أنه (من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد) أنظر الوحي المحمدي : رشيد رضا ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٤ .

(٣) ١٠ : ٢٠ (٤) ١٧ : ٥٩

ثم قال « بعد التذكير بهذه الآيات المحكمة القطعية كيف يمكننا أخذ رواية أنس بن مالك (رضي) في الصحيحين بالقبول فنصدق أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر »[1] ثم قال « وجملة القول أنه لو صح أن قريشاً سألوا النبي ﷺ آية تدل على صدق نبوته وأن الله تعالى أجابهم إلى طلبهم فجعل انشقاق القمر آية كما هو نص حديث أنس في الصحيحين وغيره في غيرهما لعذب الله أمته أو قومه باستئصالهم على حسب القاعدة الصحيحة الثابتة بالنص القطعي . . ولكنه لم ينقل أن الله تعالى عذب أحداً منهم عقب ذلك التكذيب بل نقل خلافه وإن منهم من مات بعد ذلك ومنهم من قتل ببدر بعد بضع سنين ومنهم من آمن بعد إصراره على التكذيب بعد رؤ يتها ببضع عشرة سنة »[2].

هذا ما قاله السيد رشيد رضا ـ هنا ـ وجملة ما يثبت بهذا الإعتراض لو سلمنا له ـ جدلاً ـ به أن وقوع المعجزة ليس بطلب من المشركين .

وليس هذا هو محل النزاع في القضية ، بل محله وقوع انشقاق القمر حقيقة أو عدم وقوعه .

أما كونه بطلب من المشركين أو بغير طلب فهو أمر زائد عن حدّ إثبات وقوع المعجزة له ﷺ .

هذا ما قاله السيد رشيد رضا في ما ورد من الحديث في إثبات المعجزة التي نصّت عليها الآية الكريمة ﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ ﴾[3] أبطل الإحتجاج بتلك الأحاديث وزعم أنها لا تقوم بها حجة على إثبات وقوع الإنشقاق وحصول المعجزة .

بقي أمر الآية الكريمة كيف أوّلها السيد رشيد رضا . قال في ذلك : ـ « فإذا أنت رجعت إلى لغة القرآن في معاجمها لتفهم الآية منها دون هذه الروايات

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٥ .

(٢) مجلة المنار المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٨ .

(٣) سورة القمر الآية الأولى .

وجدت في لسان العرب ما نصه « والشق الصبح وشق الصبح يشق شقاً إذا طلع وفي الحديث (فلما شق الفجران أمرنا بإقامة الصلاة) يقال شق الفجر وانشق إذا طلع ، كأنه شق موضع طلوعه وخرج منه ، وانشق البرق وتشقق انفلق وشقيقة البرق عقيقته وهو ما استطار منه في الأفق وانتشر أ . هـ فعلى هذا يقال انشق القمر بمعنى طلع وانتشر نوره ويكون في الآية بمعنى ظهر الحق ووضح كالقمر يشق الظلام بطلوعه ليلة البدر وقال الراغب في مفردات القرآن (وانشق القمر) قيل انشقاقه في زمن النبي عليه السلام وقيل هو انشقاق يعرض فيه حين تقرب القيامة وقيل معناه وضح الأمر أ. هـ ونقله عنه صاحب التاج وهذا الأخير هو المتبادر من الآية بنص اللغة ومعونة السياق لأن صيرورة القمر شقتين منفصلتين لا دخل لها في إنذار المشركين الذي هو موضع السورة ولم يسبق أن عد من آيات الساعة كانشقاق السماء وانفطار الكواكب فلم يبق إلا أنه بمعنى ظهور الحق ووضوحه بآيات القرآن »[1] .

ثم يختم حديثه هذا في هذه المسألة بقوله : ـ « ومن اطمأنت نفسه من المسلمين بقبول سائر تلك الروايات على علاتها وكان ممن يرى مخالفة النقل القطعي والعقل أهون من مخالفة زيد وعمرو ، وصدق عقله أن تقع هذه الآية ولا يحدث أحد من الخلفاء الراشدين ولا غيرهم من قدماء الصحابة برؤيتها والإحتجاج بها فضلاً عن تواترها فليس له أن يجعلها من عقائد الإسلام وينفر مستقلي الفكر ومتبعي الدليل من المسلمين وغير المسلمين منه »[2].

هذا ما قاله السيد فيما ورد من القرآن والسنة في مسألة انشقاق القمر ولن نذهب في الرد عليه بتتبع ما أورده فقرة فقرة فهذا مما يطول بنا ولكني أكتفي هنا بإيراد قول السلف في تلك المسألة ومن قرأه استطاع بنفسه أن يرد على قول السيد كله وعلى غيره من الشبهات .

---

(١) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٦ .

رأي السلف : ـ

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ « وقد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة »(١).

وقال رحمه الله تعالى في البداية والنهاية « وقد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان في عهد رسول ﷺ وقد وردت الأحاديث بذلك من طرق تفيد القطع عند الأمة »(٢).

ثم ساق رحمه الله تعالى بعض ما ورد من الأحاديث قال بعدها « فهذه طرق عن هؤلاء الجماعة من الصحابة وشهرة هذا الأمر تغني عن إسناده ، مع وروده في الكتاب العزيز »(٣) .

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى « أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي وإعراض الكفرة عن آياته وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه »(٤).

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسيره بعد ردّه على بعض الشبهات في هذا « ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر وهذا بمجرده يدفع الإستبعاد ويضرب به في وجه قائله »(٥) .

وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى « وقد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا ويؤيد بالآية الكريمة فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر »(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ ص ٢٧٩ .

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير جـ ٦ ص ٧٤ .

(٣) المرجع السابق : جـ ٦ ص ٧٧ .

(٤) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم : القاضي عياض جـ ١ ص ١٨٣ .

(٥) فتح القدير : للشوكاني ج ٥ ص ١٢٠ .

(٦) فتح الباري : لابن حجر العسقلاني جـ ٧ ص ١٨٦ .

وقال المناوي « وهذا أمر بالإجماع لا نزاع فيه لثبوته بنص القرآن والسنة وبلغ حدّ التواتر وحصل به العلم اليقيني السماعي من الجمّ الغفير »[1].

وبعد هل يحق بعد هذا للشيخ أحمد مصطفى المراغي أن يقول « ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شذّ أن هذه معجزة بلغت حدّ التواتر ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحاداً بل كانوا لا يعدون كثرة »[2].

لعل فيما أوردناه من أقوال أولئك العلماء من حكاية للتواتر ما يكفي في الرد على الشيخ المراغي ومن سار على سبيله ، ويثبت أن حكاية تواتر أحاديث انشقاق القمر ليست دعوى لشاذ من المسلمين !!

ثم إن هؤلاء العلماء رحمهم الله تعالى لم يكفهم حكاية التواتر بل أضافوا إلى هذه الردود القوية على أولئك الشاكين أو المشككين وعلى ما أوردوه من شبه في تلك المسألة .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى « وأما قول بعضهم لو وقع لجاءمتواتراً واشترك أهل الأرض في معرفته ولما اختص بها أهل مكة فجوابه أن ذلك وقع ليلاً وأكثر الناس نيام والأبواب مغلقة وقل من يرصد السماء إلا النادر وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكسف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد فكذلك الإنشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا وأقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم »[3].

وقال ابن عبد البر « ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك ، وذلك لأن المسافرين في الليل غالبا ما يكونون سائرين في ضوء القمر ولا يخفى عليهم ذلك »[3].

---

(١) العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية : للمناوي ص ٥٣ .

(٢) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٢٧ ص ٧٧ .

(٣) فتح الباري : لابن حجر العسقلاني جـ ٧ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

وقال القاضي عياض « ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأنه لو كان هذا لم يخف عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كانت علينا به حجة إذ ليس القمر في حدّ واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ذلك تقدير العزيز العليم ، وآية القمر كانت ليلاً والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجاف الأبواب وقطع التصرف ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك واهتبل به ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيراً في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبر وكثيراً ما يحدّث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم وطوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ولا علم عند أحد منها »[1].

وقال الإمام العيني رحمه الله تعالى في عمدة القارىء شرح صحيح البخاري « ولقد زعم بعض الفلاسفة بزعمهم الفاسد أن الفلكيات لا تقبل الخرق والإلتئام ونحن نقول القمر مخلوق من مخلوقات الله تعالى يفعل فيه ما يشـــاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره »[2].

وذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى « أنه قد ذكر غير واحد من المسافرين أنهم شاهدوا هيكلاً بالهند مكتوباً عليه أنه بني في الليلة التي انشق القمر فيها »[3].

ويؤيد هذا ما نقله السيد رشيد رضا نفسه : ـ « على أن الحافظ المزّي نقل عن شيخ الإسلام ابن تيميه أن بعض المسافرين ذكر أنه رأى في بلاد الهند بناءاً قديماً مكتوباً عليه أنه بني ليلة انشق القمر » ثم قال السيد رشيد « وأذكر أنني

---

(١) الشفا : للقاضي عياض جـ ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢) عمدة القارى شرح صحيح البخاري : للإمام العيني جـ ١٧ ص ١٠ .

(٣) البداية والنهاية : ابن كثير جـ ٦ ص ٧٧ .

رأيت في بعض الكتب أو الصحف أن هذا رؤ ي في بلاد الصين »[1].

ثم يرفض السيد رشيد هذا الخبر بأمر عجيب حيث يقول : ـ « لو صح لوقف عليه المسلمون الفاتحون للهند ولجعلوا لذلك البناء شأناً يشتهر به ويزار »[1] وهو يعلم ان الفاتحين كانوا يبادرون إلى هدم الأوثان والأصنام والمزارات فكيف يوجب عليهم أن يجعلوا مثل هذا مزارا ؟!

وأما ما أورده بعضهم من أن أحداً من رواة أحاديث انشقاق القمر لم ير ذلك وإنما هو من مراسيل الصحابة واستثنى من ذلك عبد الله بن مسعود فيرد عليه بقول ابن حجر رحمه الله تعالى في حديث أنس رضي الله عنه « هذا من مراسيل الصحابة لأن أنساً لم يدرك هذه القصة وقد جاءت هذه القصة من حديث ابن عباس وهو أيضاً ممن لم يشاهدها ومن حديث ابن مسعود وجبير بن مطعم وحذيفة وهؤلاء شاهدوها »[2].

ولنختم حديثنا هنا بما قاله الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في هذه المسألة حيث قال : ـ « والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه انشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة . وإن نظرنا إلى اقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ ، واستبعاد من استبعد »[3].

ولنختم الحديث عن المعجزات عموما بذلك التساؤ ل الذي حكاه الشيخ أحمد المراغي ثم أجاب عنه « ويتساءل كثير من الناس هل المعجزات ضرورية ؟

الجواب أنها ضرورية لإيمان الإنسان بقدرة الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبداً . وهذا ما يسمى بـ (الطبيعة) وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفي للآن شيء مدهش حتى أن الإنسان قد ينسى واضع هذه القوانين ويقول : ـ ما الحاجة بي لأن أقول هناك صانعاً أزلياً ما دامت

---

(١) مجلة المنار : المجلد ٣٠ الجزء الخامس ص ٣٦٢ .

(٢) فتح الباري : ابن حجر العسقلاني جـ ٧ ص ١٨٢

(٣) فتح القدير : للإمام الشوكاني جـ ٥ ص ١٢٠ .

هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟

وهنا كانت حكمة الله في أن يخرق هذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود »[1] .

وإن كنا لا نوافق الشيخ المراغي على ما ادعاه من كون المعجزات أمراً ضرورياً لإيمان الإنسان بقدرة الله وأن ثبات هذه القوانين قد ينسي واضع هذه القوانين .

بل إن سير الكون على نظام دقيق وثابت مما يدل قطعاً على أن هناك مدبراً ومسيراً وقادراً على ضبطه وإدارته ، كما لو رأيت ـ ولله المثل الأعلى ـ مركبة تسير على الأرض مستقيمة على خط سيرها لا تنحرف عنه يمنة ولا يسرة لجزمت بأن فيها قائداً ماهراً ، يتقن قيادتها ، كما أنك لو رأيتها تذهب يمنة ويسرة لجزمت بأن ليس فيها قائداً أو أن فيها قائد لا حول له ولا قوة في إدارتها وحينئذ لا يسمى قائد ، وإن رأيت المركبة تسير على خط سيرها لكنها تخرج بين حين وآخر عنه يميناً أو شمالا لجزمت أن قائدها غير ماهر أو أن النوم قد أثقل أجفانه ، أما مهارة السائق وبراعته فتظهر حينما يخبر عن عزمه على القيام ببعض الحركات العجيبة بمركبته باختياره وإرادته ثم عودتها بعد ذلك إلى نظامها ، إذن فليس كل خروج عن النظام يدل على مهارة واتقان وقدرة .

فلا دليل فيما يذكره الشيخ المراغي على أن مجيء المعجزات تذكير للإنسان بأن لا ينسى واضع هذه القوانين الدقيقة للكون ، وأن لا يعتقد أن الطبيعة هي التي تسيره .

أما المعجزة فإنما تدل بعد مجيئها وعجز البشر عن الإتيان بمثلها على أن مصدرها ليس هو ذلك الإنسان وإنما الموجد لها هو الله سبحانه وتعالى . أظهرها على يد نبيه علامة لكونه مرسلاً منه سبحانه وتعالى ، وإذا ما ظهرت العلامة لإنسان على كونه مرسلاً من الله وجب على الناس اتباعه فيما يقول وهم حينما

---

(١) تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي جـ ٣ ص ١٦٣ .

يتبعونه على يقين أنهم لا يتبعونه لذاته وإنما يتبعونه لأنه مبلغ عن الله ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[1] .

هذا مما تتميز به النبوة عن العبقرية التي اعتبرها أحد تلاميذ المدرسة كسباً عظيماً للقائلين بنبوته ؟ !

العبقرية تفوق عقلي نادر فطر عليه الإنسان ، أما النبوة فهي معتمدة على الوحي الإلهي الذي لا يستطيعه الإنسان بدون قيام علاقة خاصة بين النبي والإله ، وتتأيد النبوة بالمعجزات الإلهية المقترنة بعنصر التحدي الخارق الخالد لكل القوى الموجودة من الجن والإنس للإتيان بالمثل[2].

أما العبقرية فلا تحتاج في ثبوتها إلى هذا الأمر الخارق ، وبهذا يتضح لنا السبب في اقتناع أولئك القوم بالعبقرية وصفاً لنبينا ﷺ واعتبارها كسباً عظيماً ؟ ! لأن من ادعى النبوة إذا تجرد من المعجزات ومن علامات النبوة فإن وصفه بالعبقرية ولا شك يعدّ كسباً عظيماً .

وما منعهم من إثبات المعجزات له ﷺ إلا زعمهم أن العقل الحر لا يقبل الإذعان لأمر خارق للعادة يجبره على الإيمان فلا بد لإيمان العقل من اقتناع بدون تخويف .

وفاتهم أن العقل الحر غير المقيد بسنة الكون لا يمنع من وجود المعجزات لأن قدرة الله تعالى التي وسعت خلق السموات والأرض ممكنة للنبي ﷺ في صدور تصرف منه بإذن الله خارق للعادة ، فالله تعالى قادر على أن يسلب الأشياء ما جرت سنته فيها خرقاً منه للعادة ، لا خرقاً للعقل حتى يكون محالاً أو يتصور أنه محال ، فكما يكون قتل القتيل بإذن الله يكون إحياء الموتى على يد نبي بإذنه تعالى ، وإذا كان الله هو الذي أودع في النار خاصية الإحراق فهو قادر على

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٣١ .

(٢) مجلة الوعي الإسلامي ، ذو القعده ١٣٩٨ هـ مقال « معجزات الأنبياء » للدكتور وهبه الزحيلي .

أن يسلب منها إذا شاء تلك الخاصية[1]. وإذا كانت سنته قد جرت على أن تخرج الشمس من المشرق فإنه قادر على إخراجها من المغرب لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أوجد تلك الخصائص لهذه الأشياء ولا مانع له سبحانه من سلبها ـ عقلاً ـ وإنما المخالفة للعادة التي جرت وألفها الناس ، لتكون برهاناً للنبي على نبوته .

وكأني ألمح صلة بين المعجزة والنبوة صلة تشابه ، كأني بالمعجزة تنبيه من الله سبحانه وتعالى للكفار بأن الله سبحانه وتعالى كما أنزل هذه المعجزة المخالفة للعادة والملغية لحكمها كما أنزل هذه أرسل هذا النبي ليغير عادات قومه الباطلة التي ألفوا عليها آباءهم ويخالف هذه العادة إلى الحق والصراط المستقيم وكل هذا هنا وهناك هو بأمر الله ومشيئته .

وقد أثبت القرآن الكريم لنبينا ﷺ عدداً من تلك المعجزات نورد بعضها رداً على أولئك الذين زعموا أن لو كان له صلى الله عليه وسلم معجزة غير القرآن لحكاها القرآن ، بعد ردهم لما في السنة ، فمن ذلك

قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2] وفيها بيان لإرسال الله الملائكة مدداً للمسلمين في بدر الكبرى .

وقال سبحانه ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾[3] الآيات .

وقال سبحانه ﴿ آلمّ ، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[4] وهي إخبار بالغيب تحقق في تلك المدة

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي ، ذو القعدة ١٣٩٨ هـ مقال « معجزات الأنبياء » . للدكتور وهبه الزحيلي .

(٢) سورة الأنفال : الآية : ٩ .

(٣) سورة الإسراء : الآية الأولى .

(٤) سورة الروم : الآيات ١ ـ ٤ .

المذكورة في الآية .

والآيات غير هذا كثيرة ومنها ما فصلناه آنفاً من مسألة انشقاق القمر ، وبهذا ثبت بطلان زعم أولئك من عدم مجيئه ﷺ بمعجزة غير القرآن وردهم لما ورد من الأحاديث في إثبات المعجزات له ﷺ أو تأويلهم لها بما لا تكون به معجزة وهو أمر يؤدي إلى التشكيك بالسنة النبوية الشريفة وعدم اعتمادها دليلاً شرعياً وهو أمر خطير يقصد به هدم الإسلام من أساسه ، وللمدرسة العقلية الحديثة باع طويل في رد كثير من الحديث النبوي الصحيح من غير تحرج لرواية الشيخين له أو عدمها وهم بهذا معول من معاول أعداء الإسلام شاءوا ذلك أم أبوا أدركوا ذلك أم لم يدركوا .

إن كنت تدري فتلك مصيبة وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم

وبهذا ثبت جواز وقوع المعجزات عقلاً وكونها حجة قاطعة للأنبياء على أقوامهم ، وثبت أيضاً معجزات أخرى له عليه الصلاة والسلام غير القرآن الكريم ، واشتمال القرآن نفسه على ذكر بعضها ومجيء السنة النبوية الشريفة الصادقة بأخبار معجزات أخرى . والله الموفق والهادي ، ، .